

حول فلسفة التربية في الاسلام نظرات مستوحاة من الكتاب والسنة النبوية

دكتور مصطفى أحمد الزرقاء

قدمت هذه المقالة الى الملتقى الرابع عشر للفكر الاسلامي
المنعقد في الجزائر في أغسطس وسبتمبر ١٩٨٠

١ - التربية والتعليم والفرق بينهما .

في البلاد المتخلفة قلما كان يميز في طريق الثقافة بين مفهوم التربية
ومفهوم التعليم ، فهما فيها مفهومان مختلطان . ويتجلى هذا الاختلاط في
المفهوم بينهما في البلاد التي رزحت تحت الاستعمار الأوربي منذ القرن
التاسع عشر ، لأن تلك البلاد المغلوبة المستعمرة قد كان المستعمر ينظر
اليها كمزرعة استثمارية وسوق استهلاكية ، يحرص على بقائها مغمورة
تحت غشاوات من الجهل وقلة الوعي والتمييز ، لان ذلك هو الذي يمكن
له دوام سيطرته واستعماره واستثماره .

فتلك البلاد لم يكن يبرز لعيون أهلها من فرق بينهم وبين المستعمر
الغالب سوى فارق العلم والجهل . فالمستعمر قد تمكن من استعمارهم
لانه أعلم وأوسع معرفة في العلوم الكونية التي استطاع بتفوقه فيها أن يسخر

لارادته من وسائل القوة المادية والصناعة والسلاح ما جعله يقهرهم ويستعبدهم ، فقوته فى نظريهم هى ثمرة تفوقه فى العلم والمعارف .
ثم فى خلال النصف الاول من هذا القرن العشرين دب الشعور بالذات فى البلاد المستعمرة ، والتحسس بالظلم الذى يمارسه المستعمرون فيها ، وتولدت ، نتيجة لذلك ، رغبة النابيين من أبناء الشعوب المستعمرة فى مقاومة الاستعمار لتحرير البلاد من وطأته ومظالمه ، وكان الذى يسود أفكار هؤلاء النابيين الراغبين فى تحرير بلادهم ، أن طريق الخلاص هو اكتساب العلوم الكونية التى جهلوها وتفوق فيها المستعمر عليهم ، فاتجهوا الى التعلم ، وسافر منهم من يستطيع الى بلاد المستعمرين ليأخذ العلم عنهم ، وقنع من لا يستطيع بالتعلم فى بلده ، ونشأت حركة التعليم الحديث فى البلاد المتخلفة ، وكان الهدف الاول والاخر فيها هو أخذ أكبر قدر ممكن من العلوم الكونية بمختلف فروعها .

وفى هذه المرحلة ، ومنذ أواخر عهد الدولة العثمانية كانت الوزارة التى تقوم على مهمة التعليم تسمى (وزارة المعارف) . وبقي اسمها كذلك بعد انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الاولى ، ولا يزال هذا اسمها فى بعض البلاد العربية الى اليوم .

وهذه التسمية أثر من الفكرة التى سادت فى بداية يقظة الشعوب المستعمرة ، اذ توهموا أن سبب التفوق والقوة هو سعة العلم والمعرفة ، وان هذا هو سبيل التحرر .
نظرا الى الظاهر من أسباب القوة وهو هنا التفوق العلمى بين الغالب والمغلوب ، وذلك لقلّة الوعى السياسى وفقدان الرشد الاجتماعى عند المغلوب ، فظن أن الشعوب والافراد انما رقيها وتقدمها وقوتها بالعلم حده . وقد فات المغلوبين المتخلفين من الشعوب أن العلم وحده قد يزيد

التخلف إذا لم يكن قائده هو العقيدة والاخلاق المتينة . فقد يخون العالم أمته ، وقد يبيع ضميره ووجدانه . وقد يركب هواه ، ويؤثر مصلحته الشخصية وأنانيته على كل قيمة وعلى كل مصلحة عامة لامته ويتستر بمظاهر الصلاح الكاذبة . فالحاكم الظالم قد يخدع شعبه بالأباطيل ويتلاعب بمقدراته ، والقاضى العالم إذا لم يكن نزيها يكون أقدر على قلب الحق باطلا والباطل حقا ، بمختلف المؤثرات ، والغنى العالم قد يرضن بماله عن أوجب الواجبات فى مجال التضحية عند الضرورة اليها ، والجندى المتعلم قد يستسلم لعدوه فى أول جولة خوفا على نفسه فيرضن بها فى المواقف الحاسمة التى تحتاج الى الشجاعة والاقدام ، والموظف العالم قد يكون مرتشيا غير أمين على مصالح الدولة أو حقوق الناس عند ما يجد المغريات التى تدعوه الى الانحراف الخ .

كل ذلك لاضمان فى الامة ضده الا بالاخلاق ، لا بالعلم وحده ، ولا أخلاق الا بالتربية الحسنة التى تهدف الى التركيز على تكوين النفوس الصالحة ، والتوجيه المستقيم قبل (أومع) حشو الادمغة بالمعلومات ، وتسليحها بالمعارف والقوانين الكونية الطبيعية التى تخدم حياتها المادية ، وتزودها بوسائل الغنى والتمول ، وتنقلها من حياة التقشف والشظف الى حياة الترف .

واستمر هذا الاختلاط بين مفهوم التربية والتعليم لدى الشعوب المختلفة والمستعمرة حتى منتصف هذا القرن حيث بدأ الاستعمار بالانحسار ، وأخذت مستعمراته بالتححرر فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ودب السوعى السياسى فى فئات من الشعوب التى تحررت ، والتفتح الاجتماعى ، واذ ذلك بدأ التنبه الى التمييز بين مفهوم التعليم ومفهوم التربية ، وأخذت البلاد المتحررة فى تغيير اسم وزارة المعارف الى اسم

وزارة التربية والتعليم ، ثم الى وزارة التربية فقط فى بعض البلاد للدلالة على بلوغ هذا المستوى من الادراك الاجتماعى والاخلاقى .
ولعل من الطبيعى أن لا يكون هذا الاسراع السهل فى تغيير اسم وزارة المعارف فى هذه البلاد المتخلفة. يسايره بالسرعة نفسها تحقيق مضمون الاسم الجديد فى التربية والتوجيه وتكوين الشخصية المتكاملة فى الشباب الصاعد سلوكا ومثالية وولاء والتزاما وعقيدة واعتزازا بالاصول والتراث ، وحفاظا على الواجب فى التضحية والايثار عند الاقتضاء ، ولاسيما فى أمة كالامة العربية والاسلامية التى لم تملك أمة أخرى نظير ما ملكه أسلافها العرب والمسلمون على سطح الأرض من أمجاد مختلفة الالوان ، وعلم فى جميع فروع المعرفة ، وثقافة وحضارة لم يعهد فى التاريخ لهما مثل .

ولكن يبدو أن التخلف الطويل الامد خلال القرون العديدة فى وسع الحياة بمختلف جوانبها ، ومنه التخلف فى التربية ، لا يمكن تغييره فى وقت قصير ، ولاسيما فى بلاد عطلت جميع مصالحها الحقيقية الانقلابات والصراع على الحكم ، والمنافسات على المنافع غير المشروعة بين الأحزاب على حساب مصلحة الأمة وتربية أجيالها الصاعدة التى يجب اعدادها لدورها فى حمل المسؤولية بأمانة واخلاص .

على أننا قد كسبنا الاسم وان لم نحرز المسمى فعسى أن يكون غير بعيد ذلك اليوم المنشود الذى يصبح فيه هذا الاسم المؤنس النير (وزارة التربية) اسما على مسمى .

ب - العلم والمسؤولية

والعلم فى الاسلام مصدر لمزيد من المسؤولية عن الغير وعن المجتمع يحملها العالم ، وليس العلم فى نظر الاسلام مصدرا لامتياز فى

التمتع والمنافع والاستثمار يدل به العالم على سواه . فكلما ازداد الانسان علما ازداد تحملا للمسئولية لازدياد ادراكه لمدى واجباته .
ومن أهم نتائج غياب هذا المفهوم التربوي ومقاصده الاسلامية عن التعليم فى كثير من الاقطار ، ان لم نقل فى كلها اليوم ، أن طبقة المثقفين العصريين كثير منهم يرون أنفسهم مستحقين للتميز بحقوق ومزايا عن باقى أفراد أمتهم ممن لا يعلمون علمهم . وهكذا يرى هؤلاء المثقفون علمهم مبررا لانانيتهم فى التكبر وتكديس المنافع والاستعلاء على غيرهم من الناس . وغالبا مايكون هؤلاء موظفين فى الدولة قائمين على مصالح عامة ، فيتخذون من مركز سلطنتهم هذه ذريعة للحصول على مايفتقده باقى أفراد المجتمع غير المثقفين أو يسيئون معاملة الناس ذوى العلاقة الذين لم توجد وظائف الدولة الا لخدمتهم وقضاء حاجاتهم الرسمية ، وتيسير أمورهم .

وقد أثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله : « من كان أمير المؤمنين فهو عبد المؤمنين » .

وازداد مسؤولية العالم بدلا من تعاليه واستكباره هو ما دل عليه الحديث النبوى الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله :
« لاتزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن جسمه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به ؟ » .

هذه التربية الاسلامية للمتعلمين هى التى تخرج علماء من أول اخلاقهم التواضع ، ومن أبرز سماتهم الزهد والايثار والبعد عن الطمع وشح النفوس ، ومن أكبر همهم أن يعملوا بما علموا .

غايات التربية الاسلامية

ان التربية طريق الى غاية اجتماعية ولكي نعرف سداد السلوك في هذا الطريق من عدمه يجب أن نعرف الغاية التي يراد أن نعدلها ونوصل اليها الناشئين من طريق التربية .

أ (ان الانسان في نظر الاسلام مستخلف من قبل الله تعالى في الارض لكي يعمرها بالخير ، ويصلح الحياة عليها ، وهو مسؤول عن هذا الاصلاح ومحاسب عليه في الآخرة .

الأدلة

«واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة» (البقرة : ٣)
 «ويستخلف ربي قوما غيركم» (هود : ٥٧)
 «جعلكم خلانف الأرض» (الانعام : ١٦٥)
 «آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه» (الحديد : ٧)
 وآيات أخرى كثيرة في هذا المعنى .

ب (والحياة الدنيا الصالحة التي اعتبر الانسان مستخلفا عليها في نظر الاسلام هي أن ينشأ الانسان على الامور الآتية التي هي أركان الحياة الصالحة :

(١) عقيدة سليمة بريئة مما يدلس العقل البشري من شرك أو وثنية أو خرافات ، ومؤمنة بوحداية الله تعالى وقدرته وعلمه واتصافه بكل كمال ، ومؤمنة أيضا بالحياة الأخرى والمسؤولية فيها أي بمبدا الثواب والعقاب .
 والأدلة على ذلك كثيرة ومعروفة في القرآن .

(٢) جسم قوى يستطيع تحمل الاعباء التي في طريق القيام بواجب الاستخلاف .

الادلة

«المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف» (حديث نبوى)

«رحم الله امرءا آراهم - اى المشركين - من نفسه قوة» (حديث نبوى)

«قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم»

(البقرة : ٢٥٧)

«وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» (الانفال : ٦١)

ولم يجوز النبى صلى الله عليه وسلم انهاك الجسم ولا فى عبادة الله ،

حتى قال : ان لنفسك عليك حقا ، ولزوجك عليك حقا ، ولربك عليك

حقا، فأعط كل ذى حق حقه ، وقال أيضا: « ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا

أبقى » . يريد من المنبت المفرط فى العبادة حتى يضعف جسمه كمن

يجهد مطيته فى السفر حتى يهلكا فى الطريق .

(٣) علم صحيح يخرج به الانسان من ظلمات الجهالة العمياء الى نور

المعرفة بالحقائق والواقع والواجب . وهو فى نظر الشريعة ثلاثة أنواع :

(الاول) علم بالأمر الدينية التى تتعلق اما بالمغيبات مما وراء الطبيعة

كأحوال الآخرة والجنة والدار ، واما بأساليب العبادة المشروعة ، واما

بالحلال والحرام فى الشؤون الفردية والاجتماعية . وهذا النوع لا يسوغ

تلقيه الا من مصادر الشريعة الاساسية من القرآن والسنة الثابتة ثبوتا

صحيحا .

(الثانى) علم بنواميس الكون وقوانين الطبيعة ومصالح الحياة

ووسائلها وهذا النوع مرجعه العادات والتجارب والمشاهدات . وقد عنى

الاسلام فى هذا النوع بتنمية الادراك البشرى ، وحض على اطلاق

العقل فى ميدان التفكير والتدبر والنظر فى الحقائق الثابتة ومشهودات

الكون للوصول منها الى علم كونى صحيح .

الأدلة

«قل انظروا ماذا فى السموات والأرض» (سورة يونس: ١٠١).

«وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون»

(سورة الذاريات: ٢٠)

«أنتم أعلم بأمر دنياكم» (حديث شريف)

(الثالث) علم بالنظام الشرعى ، أى بالجانب القانونى من شريعة

الاسلام ، وهو الشرع الحقيقى والجزائى الذى أمر به الاسلام ، ويسمى

«فقها» . وهذا قد أتى فى الاسلام ببعض أحكام ثابتة كتحریم الربا ،

وحقوق الارث ، ومحللات النكاح ومحرماته ، والقصاص فى القتل ،

وبقواعد كلية كمبدأ التراضى فى العقود ، وازالة الضرر ، ودرء المفسد ،

ورعاية الأصلح والأقرب الى العدالة ، واعتبار العرف والعادات فى كل ما

لا يصادم نصوصا تشريعية . الخ ...

وفيما وراء ذلك أمر بالاجتهاد فى تخريج أحكام الحوادث على وفق

ما تقتضيه تلك الأسس وروح الشريعة .

(٤) تهذيب روحى وأخلاق كريمة قوينة تكون رقبيا على توجيه قوة

الجسم والعلم فى انتاج الخير للمجتمع . وتجعل من الانسان عنصرا نافعا ،

وقدوة سالحة ، فى ظل العقيدة السليمة التى هى الركن التأسيسى الاول .

الأدلة

«بعثت لاتمم مكارم الأخلاق» (حديث شريف)

«ألا أخبركم بأحبكم الى وأقربكم منى منازل يوم القيامة ؟

أحاسنكم أخلاقا» (حديث شريف)

«الناس عيال الله ، وأحبهم الى الله أنفعهم لعياله» (حديث شريف)

هذه هى أركان الحياة الصالحة التى يجب أن ينشأ ويربى عليها-

الانسان . والتربية فى نظر الاسلام يجب أن تخدم بجميع الوسائل ، وفى جميع هذه النواحي فى الحياة ، أى ان التربية يجب أن تكون جسمية وعقلية وروحية . وكل منها يجب أن تعد الانسان فى موضوعها للوصول الى الغايات السالفة البيان .

فالتربية الجسمية يجب أن تكون بحيث تنشئ جسماً قويا ، والتربية العقلية يجب أن تنتج عقيدة سليمة متينة ، وادراكا وتفكيراً سديدين وعلماً صحيحاً ، والتربية الروحية يجب أن تنشئ خلقاً طيباً مطبوعاً بحيث يصبح كفطرة ثابتة فى الانسان .

وسائل التربية وطرائقها فى الاسلام

وأما وسائل هذه التربية وطرائقها فان للاسلام فيها نظراً فى كل من النواحي الثلاث : الجسمية ، والعقلية ، والروحية .

أولاً : فى الناحية الجسمية

تبدأ التربية الاسلامية فى هذه الناحية بتدبير سابق هو اختيار الأزواج . فيستحسن شرعاً الاغراب فى الأزواج ، أى أن تكون الزوجة غريبة أى بعيدة عن دم أسرة الزوج ، لأن العادة تثبت أن النسل عندئذ فى الغالب أصح وأقوى ، لأنه اذا اجتمع عنصر ضعف وراثى فى كلا الأبوين يرثه الولد غالباً ، وفى الاغراب يتغلب العنصر الأقوى .

وهذا ما فعله عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) اذ شاهد أن بعض القبائل العربية قد أضوت أى ضعفت أجسامهم ، فأمرهم أن يتزوجوا الغرائب .

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يشاهد الزوج مخطوبته فتراه ويراهها قبل الزواج ، لمقاصد عديدة حكيمة منها التأكد من مظاهر صحة الجسم .

ثم بعد حصول الزواج والولد أقر الاسلام ما كان معهوداً عند العرب من ارسال الطفل الى البادية ليربى فيها ، انتجاعاً للهواء الطلق ، وللنشؤ فى أحضان الطبيعة عند القبائل ، فينشأ أصح وأقوى جسماً ، وأقوم لغة ولساناً . ويظل كذلك طور حضائته كله حتى يحتاج الى تثقيف ، فيعاد عندئذ الى أهله . وهكذا ربي النبي صلى الله عليه وسلم عند حاضنته حليلة فى بنى سعد . وكان خلفاء بنى أمية يفعلون ذلك فى تربية أبنائهم .

ثم أخيراً يحض الاسلام على ممارسة الرياضة البدنية بصورة تعد لقوة الجسم وخفة الحركة . ومن ثم كان النبي صلى الله عليه وسلم يفسح المجال لتصارع الصبيان المراهقين بين يديه . وقد تسابق هو وأم المؤمنين عائشة بالأقدام ، كما كان الرجال يلعبون بالسلاح بين يديه فى المسجد . وأكد على تعويد الرماية عن القوس والسباحة ، وركب الخيل ، وفضلها على غيرها لانها تفيد الانسان فى الحرب .

وكان عمر يأمر الناس بأن يعودوا أولادهم القفز من الأرض الى ظهور الخيل ، ويعرضوهم للشمس ، ويسمى الشمس حمامات العرب . وفى أمر التربية الجسمية يوجه الاسلام اهتماماً كبيراً نحو النظام الغذائى ، ويوصى بالبساطة فى المأكل ، تخفيف الوجبة ، وعدم ادخال الطعام على الطعام . ودستور ذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم فيما ثبت عنه : أن لا يملا الانسان معدته بالطعام ، بل أن يجعل ثلثها فقط للطعام ، وثلثها للشراب وثلثها للهواء .

ثانياً : فى الناحية العقلية

التعاليم الاسلامية تقضى بأن تبدأ التربية العقلية للطفل منذ أن يبدأ وعيه وتأثره بالتلقى والتلقين .

وقد أقرت الأحكام الفقهية الاسلامية للأم المطلقة غير المسلمة اذا

كان زوجها مسلماً حق حضانة طفلها مالم يبدأ وعيه للأديان وتعقله لها على سبيل التقليد . فمتى أصبح يعقل ذلك ويقلد فيه ينقطع حق أمه غير المسلمة في حضانته خوفاً على عقيدته ، وعندئذ يحضنه غير أمه ممن لهن حق الحضانة في وسط إسلامي ، ويبدأ تكوين عقيدته الإسلامية قبل كل شيء .

وكذلك يبدأ تكوين فكره العلمي تبعاً لنمو قابلياته وبحسب مراحل هذا النمو الطبيعية ، والطريقة الإسلامية أن ينزل المربون إلى مستوى عقلية الطفل في التلقين .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطاطب ظهره ليركب عليه سبطاه الحسن والحسين رضي الله عنهما في طفولتهما ، ويقول لهما :
«نعم الجمل جملكما ، ونعم الحملان أنتما» .

وكان عند بعض أطفال الصحابة نغز (عصفور) ففقد ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يداعبه ويسأله « يا أبا عمير ، ما فعل النغز؟ » وهكذا تدل جميع الآثار على التنزل إلى مستوى الطفل في تربيته . ويمنع الإسلام اطلاع الأحداث على الأديان الأخرى وعقائدها ، كي لا ينطبع شعورهم الديني بها وهو ساذج . فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تعليم أبنكار الأولاد كتب الديانات المخالفة . وفسروا الأبنكار بالأحداث .

وقد افترض الإسلام طلب العلم على كل مسلم مدى حياته فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » . وقال :
«طلب العلم فريضة على كل مسلم» . ويدخل في لفظ المسلم في هذا المقام الرجل والمرأة ، فالقدر الضروري من العلم فيه أمور الدين والدنيا فريضة شخصية عينية على كل مسلم ومسلمة .

وما زاد عن ذلك مما تتعلق به مصلحة المجتمع فريضة كفاية بحسب الحاجة العامة . ويدخل فى ذلك كل ما يحتاج اليه المجتمع من العلوم ، من صناعية وطبيعية وزراعية وعسكرية وطبية . الخ
والطريقة المثلى للتنشئة العلمية فى نظر علماء الاسلام المستمدة من دلائل الكتاب والسنة فى التعليم انما هى فى تنوير فكر الناشئ واذكاء فهمه ومحاكمته العقلية أكثر من حشو ذهنه بالمسائل العلمية .

وقد صرح العلماء الفقهاء بأن العلم الحقيقى هو ملكة الفهم الصحيح ، لاكثره الاطلاع على المسائل . وبهذه المناسبة أذكر كلمة لبعض الفلاسفة الفرنسيين تتفق تماما مع هذا النظر الاسلامى فى التعليم والتثقيف اذ يقول ذلك الفيلسوف ما ترجمته : « ان ذهن الطالب قيس يجب اذكاؤه ، لا وعاء يجب املاؤه » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم عند ما يرسل من صحابته معلمين وحكاما الى الاقطار ، كعلى ومعاذ بن جبل (رضى الله عنهما) انما يبين لهم طريقة الحكم الصحيح الموافق لأصول الشريعة ، ثم يكلمهم الى اجتهادهم فى تعرف أحكام الحوادث من نصوص الشريعة .

والعلم فى نظر الاسلام وسيلة الى العمل ، فخير العلوم ماكان أمس بالحاجة . وقد بدأ النبى صلى الله عليه وسلم أول مدرسة فى الاسلام بأن جعل فداء أسرى بدر من المشركين العالمين بالقراءة والكتابة أن يعلم كل أسير منهم عشرة من المسلمين . وبذلك انتشرت القراءة والكتابة بينهم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يخشى أن يصبح المسلمون علماء غير عاملين بعلمهم ، فأفهمهم بطريقة عملية أن العلم وسيلة للعمل ، وحذرهم من المسؤولية الدينية الرهيبة التى يتعرض لها من لايعمل بمقتضى علمه . والطريقة التى وجههم بها هذا التوجيه هى ما روى عن ابن مسعود (رضى

الله عنه) وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم عشر آيات من القرآن ثم لا يتجاوز بهم الى غيرها حتى يعملوا بكل ما تضمنته من أحكام، قالوا : فتعلمنا القرآن والعمل جميعا (انظر مقدمة تفسير ابن كثير) .

ثالثا : فى الناحية الروحية

يعتمد الاسلام فى التربية الروحية على أمور :

(١) التوجية الى ممارسة العبادة المشروعة وادبها بخشوع فى مناجاة الله تعالى فيها ، واخلاص فى أدائها بجميع صورها .
ويعتبر هذه العبادات اذا أدت على وجهها الاكمل وبخشوع صحيح خير أمر وناه من نفس الانسان لنفسه ، اذ يقول القرآن العظيم : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وطريقة الاسلام فى هذه التربية على العبادة أن يؤمر الطفل بالصلاة منذ تمام السنة السابعة من عمره . ويجوز أن يضرب عليها بعد أن يتم العاشرة من العمر اذا قصر فيها ، على أن لا يضرب بعصا ونحوها بل باليد فقط . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » .
(٢) الوعظ والارشاد ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبخاصة تنمية فكرة المسؤولية الأخروية ترغيبا وترهيبا .

التوجية الاختصاصى فى التربية العلمية

ان تعاليم الاسلام تقضى باعتبار ناحية التوجيه الاختصاصى فى التربية مسألة فى غاية الاهمية والخطورة ، واعطائها مايتناسب مع أهميتها من عناية كبيرة .

ويقوم ذلك فى نظر علماء الاسلام على وجوب دراسة ميول الأطفال وقابلياتهم منذ تنشئتهم الاولى ، ثم توجيه كل منهم الجهة التى يدل ميله

واستعداده على امكان نبوغه فيها .

وأساس ذلك شرعا هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينتقى لكل عمل من هو أصلح له وأقدر عليه : فيعهد بالأذان الى بلال رضى الله عنه ويصرح بانه اختاره على غيره لأنه أندى صوتا . ويعهد بالقضاء الى من هو أقدر وأحسن فيه فهما وعلما ، وبقيادة الجيش الى من هو أحزم وأخبر بالحرب وأشجع وبالجبابة الى من هو أبرز من غيره أمانة وورعا ، وهكذا فى سائر شعب الاعمال .

فقد أخرج الامام مسلم فى صحيحه عن أبى ذر رضى الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ألا تستعملنى ؟ (أى تولينى امارة) ، فضرب بيده على منكبى ثم قال : يا أباذر ، انك ضعيف وانها يوم القيامة خزى وندامة ، الا من أخذها بحقها (أى كان كفؤا لها جديرا بها) وأدى الذى عليه فيها « - (رياض الصالحين للنووى بتحقيق وتعليق الدكتور صبحى الصالح الحديث - ٦٧٣) .

وقد أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، كما سبقت الاشارة اليه من قبل : « انتم أعلم بأمور دنياكم » . فوجه العقول بذلك الى النشاط والتجارب والبناء على الاصول والقواعد التى يثبت خيرها وصلاحها فى هذه الحياة ، والى اعتماد أهل الخبرة فى كل شأن .

ومما لاشك فيه أنه لا يمكن أن يتوافر فى كل زمن لكل عمل ومهمة من يتقن ذلك ويحسنه الا بتنمية الملكات والمواهب الاختصاصية بحسب الاستعداد الفردى فى كل شخص ، ليستفاد من قابلياته الكامنة التى اذا هبئ لها طريقها الملائم قطعت فيه أعظم شوط ممكن ، واذا سارت على خير بصيرة فى غير طريقها الملائم قعدت بصاحبها عجزا فى أول الطريق . فقد يصلح للعلم والنبوغ فيه من لا يصلح للحرب ، وقد يميل للصناعة

فيجدها ويبتكر فيها من لاجلد له على الزراعة أو التجارة أو العلم والحفظ ، كما أنه قد يجيد الخطابة من لايحسن نظم الشعر . فكل واحد اذا وجه الى نحو ميله وقابليته نبغ واذا مشى فى غيره عجز وضاعت مواهبه . فخسر نفسه وخسره المجتمع .

ومن ثم يعد علماء الاسلام من فروض الكفاية فى الأمة . تلك الدراسة لميول الناشئين وقابلياتهم وما يبنى عليها من توجيه كل شخص توجيهها اخصائيا الى ما تساعد عليه قابليته وميله ، وذلك فى معاهد ومدارس تنشأ خصيصا لهذا الغرض لكي يوجد دائما فى الامة لكل مصلحة من مصالحها العلمية والحيوية من يستطيع القيام بأدائها على أكمل وجه .

ومعنى فرض الكفاية هو المصالح والوسائل العامة التى تتعلق بها حاجة المجتمع الضرورية فيفترض على مجموع المقتدرين من الأمة أن يسعوا ويبدلوا فى تحقيقها ، وذلك كقيادة الجيوش وانشاء الجامعات لمختلف الدراسات الاختصاصية اللازمة ، ومعاهد التقنية المتطورة (التكنولوجيا) ، والمستشفيات والمستوصفات وملاجئ العاجزين ، واقامة الجوامع والمعابد ، ورياض الاطفال ودور التدريب وتعليم الحرف ، وصناعة الاسلحة المختلفة والمتطورة . فاذا قام بها البعض من حكومة أو فرد أو افراد سقط الوجوب عن الكل لان المقصود حصول الامر الواجب بقطع النظر عن من يقوم به ، واذا لم يقم بها أحد كان الجميع آثمين لتقصيرهم .

وفرض الكفاية هذا يقابله شرعا الفرض العيني ، وهو مايجب على كل شخص بعينه أن يفعله ولايغنى فيه فعل غيره عن فعله ، كالصلاة والصيام ونحوهما فلايقبل أن يصلى أو يصوم أحد عن غيره .

فطلب العلم مثلا واجب عيني ، ولكن تعليم الناس واجب كفائي لان تحصيل الانسان للقدر الضرورى من العلم هو فريضة شخصية لقول النبى

صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » فلا يشفع علم العالم لجهل الجاهل ولا يغنى عنه .

أما تعليم الناس ما يحتاجون اليه فهو حاجة عامة من مصالح المجتمع فاذا قامت فئة من الناس بواجب التعليم الكافى ، وهيات وسائله ، حصل المقصود وسقط الوجوب .

وعلى هذا الأساس فان دراسة ميول الناشئين وقابلياتهم الفطرية ، وتوجيه كل منهم توجيهها أخصائيا الى الجهة التى يصلح لها يعتبر فى نظر علماء الاسلام من الواجبات الكفائية .

وقد أفاض الامام الشاطبى أبو اسحق ابراهيم بن موسى المالكى ، المتوفى سنة ٧٩٠ للهجرة فى بيان ذلك فى كتابه « الموافقات فى أصول الشريعة » . وأتى فى ذلك بأفضل وأروع ما يمكن أن يصل اليه الفكر العلمى الحديث فى هذا العصر ، وسأنتقل هنا نص ما قاله هذا الامام الكبير فى هذا المقام لما فيه من جوهر هام فى التربية الاختصاصية الاسلامية .

قال رحمه الله فى المسألة ١١ من الجزء الاول من كتابه « الموافقات »
 « ان الله عزوجل خلق الخلق غير عالمين بوجوه مصالحهم ، لافى الدنيا ولا فى الآخرة ، ألا ترى الى قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا » .

« ثم وضع فيهم العلم بذلك على التدريج والتربية ، تارة بالالهام كما يلهم الطفل التقام الثدي ومصه ، وتارة بالتعليم . فطالب الناس بالتعليم والتعلم لجميع ما تستجلب به المصالح ، وكافة ما تدرأ به المفسد ، انهاضا لما جبل فيهم من تلك الغرائز الفطرية والمطالب الالهامية لان ذلك كالاصل للقيام بتفاصيل المصالح ، سواء أكان ذلك من قبيل الافعال أو الأقسام ، أو العلوم ، أو الاعتقادات ، أو الآداب الشرعية ، أو العادية .

وفى أثناء العناية بذلك يقوى فى كل واحد من الخلق ما فطر عليه ، وما ألهم له من تفاصيل الأحوال والأعمال ، فيظهر فيه ويبرز على أقرانه ممن لم يهياً تلك التهيئة . فلا يأتى زمان التعقل الا وقد نجم على ظاهره ما فطر عليه فى أوليته . فترى واحداً قد تهباً لطلب العلم ، وآخر لطلب الرئاسة ، وآخر للتصنع ببعض المهن المحتاج اليها ، وآخر للصراع والنطاح الى سائر الامور .

«هذا ، وان كان كل واحد قد غرز فيه التصرف الكلى ، فلا بد فى غالب العادة من غلبة البعض عليه فيرد التكليف عليه معلماً مؤدباً فى حالته التى هو عليها . فعند ذلك ينتهض الطلب على كل مكلف فى نفسه من تلك المطلوبات بما هو ناهض فيه ، ويتعين على الناظرين فيهم الالتفات الى تلك الجهات منهم ، فيراعونهم بحسبها ، ويراعونها الى أن تخرج فى أيديهم على الصراط المستقيم ، ويعينونهم على القيام بها ، ويحرضونهم على الدوام فيها ، حتى يبرز كل واحد فيما غلب عليه ومال اليه من تلك الخطط . ثم يخلى بينهم وبين أهلها ، فيعاملونهم بما يليق بهم ، ليكونوا من أهلها اذا صارت لهم كالأوصاف الفطرية والمدركات الضرورية .»

«فاذا فرض مثلاً أن واحداً من الصبيان ظهر عليه حسن ادراك ، وجودة فهم ، ووفرة حفظ لما يسمع وان كان مشاركاً فى غير ذلك من الأوصاف . ميل به نحو ذلك القصد .»

«وهذا واجب على الناظر فيه ، من حيث الجملة مراعاة لما يرجى فيه من القيام بمصلحة التعليم وأدب بالآداب المشتركة بين جميع العلوم ، ولا بد أن يمال منها الى بعض ، فيؤخذ به ويعان عليه ولكن على الترتيب الذى نص عليه ربانيو العلماء .»

«فاذا دخل فى بعض العلوم فمال به طبعه اليه على الخصوص ، وأحبه أكثر من غيره ترك وما أحب ، وخص بأهله فوجب عليهم انهماضه فيه حتى يأخذ منه ما قدر له من غير اهمال له ولا ترك لمراعاته . . .»
 «ثم ان وقف هناك فحسن ، وان طلب الاخذ فى غيره ، أو طلب به فعل معه فيه ما فعل فيما قبله . وهكذا الى أن ينتهى . . .»

«وذلك كما لو بدأ بعلم العربية مثلا - فانه الأحق بالتقديم - فانه يصرف الى معلميها فصار من رعيتههم وصارواهم رعاة له . فوجب عليهم حفظه فيما طلب بحسب ما يليق به وبهم فان انتهض عزمه بعد الى أن صار يحذق القرآن صار من رعية الحفاظ وصارواهم رعاة له كذلك . . .»

«ومثله ان طلب الحديث أو التفقه فى الدين الى سائر ما يتعلق بالشرعية من العلم . وهكذا الترتيب فيمن ظهر عليه وصف الاقدام والشجاعة وتدبير الامور ، فيمال به نحو ذلك . ويعلم آدابه المشتركة ، ثم يصار به الى ما هو الاولى من صنائع التدبير ، كالعرافة أو النقابة أو الجندية أو الهداية أو الامامة أو غير ذلك مما يليق به ، وما ظهر له فيه نجابة ونهوض . . .»

«وبذلك يتربى لكل فعل ، ما هو فرض كفاية ، قوم ، لأنه سير أولا فى طريق مشترك . فحيث وقف السائر وعجز عن السير فقد وقف فى مرتبة محتاج اليها فى الجملة . وان كان به قوة زاد فى السير الى أن يصل الى أقصى الغايات فى المفروضات الكفائية ، وهى التى يندر من يصل اليها ، كالاتجاه فى الشريعة والامارة . فبذلك تستقيم أحوال الدنيا وأعمال الاخرة . . .»

«فأنت ترى أن الترقى فى طلب الكفاية ليس على ترتيب واحد ، ولا هو على الكافة باطلاق ، ولا على البعض باطلاق ، ولا هو مطلوب من حيث

المقاصد دون الوسائل ، ولا بالعكس ، بل لا يصح فى أهل الاسلام بمثل هذا التوزيع ، والا لم ينضبط القول فى ذلك بوجه من الوجوه ، والله أعلم وأحكم .. انتهى كلام الشاطبى .

الفرق بين تربية الاحداث والبالغين

قبل كل شئ فى تربية الناشئين يجب أن يلحظ أن تربية الناشئ يجب أن تهدف الى اعداده جسميا وعقليا وخبرة فى أمور الحياة التى هو قادم على خوض غمارها . وهذا ما يوجب ، الى جانب تغذية عقله بالعلم وأهم أنواع المعرفة تدريبه وتعويده على ممارسة الاعمال ذات المسؤولية وتحمل مسؤولياتها .

ومن ثم كان من المقرر فقها أن لولى الصغير المميز أو وصيه ، بل ينبغى له ، أن يأذن له بالتصرف فى السوق التجارية اذا كان من أهلها ، ويعلن لاهل السوق ذلك وفى هذه الحال يرتفع الحجر الطبيعى عن الصغير ، فيصبح ذا أهلية كاملة فى حدود ما أذن له فيه بالتصرف ، فينفذ عليه تصرف كما لو صدر منه وهو كبير راشد .

فاذا وجد الولى منه نجاحا وسدادا يوسع له فى نطاق الاذن والترخيص ، حتى اذا كبر وبلغ سن الرشد وواجه الحياة باستقلال ومسؤولية يواجهها بخبرة ودربة ، والا فانه يكبر سنا ويبقى فى كفايته صغيرا مغفلا .

وأصل ذلك قوله تعالى فى سورة النساء : «وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم» . والا بتلاء هو الاختبار . وطريق الاختبار هنا هو الاذن له بالتصرف فى نطاق محدود ، فيكون اختبارا وتدريبيا فى وقت واحد . والهدف هو تأهيله للاستقلال وحمل المسؤوليات فى سداد ورشاد .

فاذا أردنا الآن ابراز الفوارق بين تربية الأحداث والبالغين فى

الأساليب الإسلامية وجدناها تتجلى في أمرين اثنين :
 الأول : أن الاحداث لم تشرع في حقهم العقوبة النظامية لاجل
 تربيتهم اذا خالفوا الاوامر الا مايتصل بالسلطة الابوية في التأديب
 بالضرب اليسير باليد لابعضا .

اما الكبار فقد شرع في حقهم العقاب تأييدا لامثال الاوامر في
 الشؤون الدينية والاخلاقية . ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله :
 « ان الله ليزع بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن » .

الثانى : أن طريقة تربية الاحداث هى فى النزول الى مستوى
 عقليتهم وفهمهم كما تقدم بيانه . أما الكبار فبمخاطبة عقولهم نظريا ،
 وبقيادتهم عمليا فيما يراد تربيتهم عليه . فقد كان النبي صلى الله عليه
 وسلم يأمر الصحابة بالأمر ويبدوهم بتطبيقه حتى يجدوا فيه القدوة .

فكان فى حفر الخندق يحمل التراب على ظهره الشريف معهم
 ليعلمهم عدم امتياز بعضهم على بعض ، ولينتزع فكرة الطبقية المسيطرة
 فى الجاهلية . وكان أحيانا يأمرهم بالاخف ممارخص فيه الشرع وهم
 يريدون الأشد ، أو يأمرهم بما يخالف عاداتهم الاجتماعية التى جاء دين
 الاسلام بهدمها فيصعب عليهم الامثال حتى يباشر بنفسه ما أمرهم به
 فينقادون ويألفون ، كما حصل عندما أمر النبي صلى الله عليه وسلم
 الصحابة بالافطار فى رمضان وهم مسافرون للجهاد فى غزوة الفتح خوفا
 أن تضعف أجسامهم من الصيام عند لقاء العدو ، وقد شرع الله الافطار فى
 السفر ، فصعب عليهم الامثال ، حتى أشارت عائشة رضى الله عنها على
 النبي صلى الله عليه وسلم أن يفطر هو أمامهم ففعل فتابعوه فى الافطار .

وكذلك فى حادثة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بابنة عمته زينب
 التى كانت زوج متبناه زيد بن حارثة . وقد كانت العرب تعتبر المتبنى كالابن

الحقيقى ، وزوجته تعتبر كئنة لايجوز لأبيه تزوجها بعده ، فجاء الاسلام بابطال ذلك ، وقصر حكم التبني على الكرامة المعنوية ، فجاء فى القرآن : « ادعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آبائهم فاخوانكم فى الدين » .

وقد كان يصعب على العرب امتثال هذا الحكم لما يلحظونه فيه من حرج بحسب التقاليد الاجتماعية الموروثة ، حتى تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب مطلقة متبناه زيد فزال بذلك كل حرج ، وألفه الناس . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم طريقة فى تربية الرجال غير طريقة القدوة ، وهى أن يوجههم بالفعل الى الأفضل ثم يترك النتائج تملى عليهم العظة . فقد روى ابن ماجه فى سننه فى (باب بيع من يزيد) أنه جاء رجل فقير يسأل النبى صلى الله عليه وسلم صدقة ، فرأى أنه قادر على العمل ، فسأله عليه السلام ما عندك فى بيتك قال : حلس نيسط بعضه ونبلس بعضه ، وقدح نشرب فيه الماء ، قال اثنتى بهما ، فنادى فى أصحابه من يشتري هذين : فقال رجل أنا اشتريهما بدرهم ، قال : من يزيد عليه ؟ فقال آخر : أنا أشتريهما بدرهمين يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فباعهما منه ثم دفع الدرهمين الى صاحبهما وقال له : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك واشتر بالآخر قدوما واثنتى به . ففعل ، وأتاه بالقدوم ، فشد النبى صلى الله عليه وسلم فيه عودا (أى وضع له نصابا) ثم أعطاه أياه وقال له اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما . فذهب الرجل يحتطب ويبيع ثم جاء بعد خمسة عشر يوما ومعه عشرة دراهم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم عندئذ : « هذا خير لك من أن تأتى يوم القيامة والمسألة - أى سؤالك الصدقة - نكتة سوداء فى وجهك » .

ملاحظات ختامية

- (١) ان التربية العقلية والروحية للاحداث ليس لها فى الاسلام سن معينة كما سبقت الاشارة اليه ، وانما وقتها نسبى وهو الوقت الذى ينضج فيه وعى الطفل فى تلقى المعانى الدينية والتقليد فيها ، وهو يوافق السن التى يؤخذ فيها الاطفال فى هذا العصر لروضات الأطفال ، وهذا كما ذكرنا نسبى يختلف باختلاف بنية الطفل وقابلياته .
- والدليل على ذلك ماتقدم بيانه من نص الفقهاء على عدم جواز ابقاء الطفل المسلم عند أمه المطلقة غير المسلمة لأجل حضائه عندما يبدأ بتعقل الأديان .
- (٢) الاختلاط فى تعليم الاحداث تدل الدلائل الشرعية ونصوص الفقهاء على أنه يمكن أن يسمح به الى تمام سن السابعة من العمر .
- (٣) التربية الاسلامية : يجب أن تعد أفرادا صالحين للحياة فى الدنيا والاستعداد للآخرة ، وقد فهم ذلك مما تقدم ، وأن من الادلة عليه غير ما تقدم قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا (القصص : ٣٨) وقوله أيضا « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة » (البقرة : ٢١) وفى عبارة الشاطبى السالفة البيان بلاغ كاف فى هذا الموضوع .
- (٤) الظاهر من رأى الدين الاسلامى فى طبيعة الفطرة البشرية أنها صفحة بيضاء فى الابتداء ثم تتأثر بمؤثرات التربية والتوجيه والمحيط والمجتمع . ولكن العقل بعد ذلك كاف لان يكون حاكما مميذا منظما . ويدل على ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم . « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .